الشاعر الذائع

لا أعلم شاعرًا فرض على الناس إنشاد شعره وترديد أبياته كالمتنبي؛ لأنه عاش ما يقول، وعانى ما يتلفظ به، وانصهر بالحوادث فصورها شعرًا، ولذع بالنكبات فأرسلها أمثالًا، ولابس التجارب فأبدعها حكمًا، فصار شاعرًا محفوظًا في الذاكرة، حاضرًا في الأجيال، خالدًا في ديوان الإبداع، وهاك بعض أبياته الشاردة الذائعة الشائعة يقول:

ومن نَكَد الدُّنيا على الحرِّ أن يرى ... عدوًّا لـه ما من صداقَته بدٌّ

إن من يقول هذا الكلام لابد أن يكون مبدعًا موهوبًا، أديبًا مجربًا بليغًا عبقريًا، فالإبداع يخترع لك المعنى الجميل، والموهوب تسعفه ذاكرته بجواهر المعاني، والأديب يصوغها في قوالب أزهى وأبهى من الماس، والعبقري يتفرد عن التقليديين والعاديين، والمجرب له مدد من حياته الغزيرة بالأحداث الغنية بالحوادث.

لو أن متحدثًا أراد أن يقول معنى البيت السابق نثرًا لقال: إن الدنيا مشؤومة على الأخيار، تضطرهم أن يحتاج الأخيار فيها إلى الأشرار، فيحملونهم وينافقونهم لجلب الخير ودفع الشر؛ لأنهم مضطرون إلى ذلك؛ فيصبح العدو اللدود عند الضرورة صديقًا يُذَّل له، ويصانع ويدارى ويداهن للمصلحة المفروضة، أو الحاجة الملحة، أو الضرورة القائمة، ويكفي هذا ذلة للأحرار، وعلمًا بحقارة الدنيا ونذالتها، لكن المتنبي يختزل هذا السيلان الإنشائي، والثرثرة اللفظية في بيت محبوك مسبوك أجمل من نجوم الليل، وأثمن من حمر النعم فيقول:

ومن نكدِّ الدُّنيا على الحرِّ أن يَرى ... عدوًّا لـه ما من صداقَته بدٌّ

وتعال معي ـ رعاك الله ـ وضع أصبعك على كل كلمة في البيت لترى روعة الاختيار، وجمال الانتقاء، وانظر إلى كلمة «نكد» ويالها من لفظة معبرة موحية، تشعرك بالاشمئزاز من هذه الدنيا، فهي دار النكد والكبد، وهي أبلغ في موقعها من لفظة غيرها مكانها، وكلمة «الحر» موحية فاتنة؛لأن فيها معنى الأنفة والكبرياء والشموخ، وهي التي تليق بالمقابلة في البيت، ثم انظر قوله «عدوّا له»، وليس مبغضًا وكارهًا فحسب، بل عدوًا كاشحًا، ثم يختار كلمة «الصداقة»، ولو أنه النفاق الظاهري، لكن ليقابل كلمة العدو، ثم يأتي بكلمة «بد» وقد احتاجت إليها القافية حاجة الأرض إلى المطر، فجاءت في محلها لا وكس ولا شطط؛ ليكتمل هذا البيت الفريد. ولك أن تقول نثرًا: إن الحقراء إذا نالوا العظماء فهو دليل على عظمة هذا العظيم وسمو قدره وجلالة مكانته وخطورة منزلته، ولكن المتنبي يكسو هذه المعاني حلية باهية، ويوشيها بحلة زاهية؛ لتبقى وتنقل وتعيش يقول:

وإذا أتَتْكَ مذمتِي من ناقصٍ فهي الشهادةُ لي بأنِّي كاملُ

فانظر إلى كلمتي ناقص وكامل وحسن المقابلة بينهما، وكلمة مذمتي وكلمة الشهادة، ثم ارجع البصر كرتين في سلامة هذا الذوق، وجودة هذا الخاطر، وخصوبة هذه الذاكرة.

إن الأمة أصيبت بإعياء في البصيرة، وكساح في الذوق، فما أصبح يهزها هذا الخطاب؛ لأن التبلد الذهني مع خشونة الطبع وانطماس العبقرية زادها عمًى عن مشاهدة مرابع الجمال والبيان، ومطالعة البهاء والإبداع في هذا السحر من الكلام، والعذب من القول:﴿ **فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا** ﴾[**النساء** :٧٨]. ولك أن تفهم الناس بأن نياتهم وحدها لا تكفي

بلوغ المقصود، وأن طموحاتهم قد تصطدم بموانع لا تسمح ببلوغ مقاصدهم، فكم من أمنية عذبة لم تتحقق، وكم من مراد في الأذهان لم يحصل في الأعيان، لكن هذا الكلام قد يطير هباءً منثوراً ما لم يقيد بقافية جميلة، وكلمة شاردة، وهذا ما فعله المتنبى بقوله:

ما كلُّ ما يتمنى المـــرءُ يُدْرِكُه تجري الرياحُ بما لا تشتهي السُفُنُ

فانظر إلى قوة الفكرة، وحسن الشاهد، وحلاوة السبك في إيجاز من القول، ولطف من العبارة، ورشاقة في المعنى.

إن الشيوع والذيوع للعالم والشاعر والواعظ والزعيم هبة ربانية، ولكن لها أسبابها ومواهبها، وكان المتنبي ذائعًا شائعًا حتى ذكر شارحو ديوانه أن له خمسمائة بيت تدور على ألسنة الناس، وأصبحت بعض أجزاء أبياته كالسكر في الفم، والطل في الزهر، كقوله: «**فإن في الخمرِ معنى ليسَ في العنب**»، وقوله: «**أن تحســبَ الشَّحمَ فيمن شحمُه ورمُ**»، وقوله: «**ما لجرح بميت إيلامُ**»، «**إذا ساءَ فعلُ المرءِ ساءتْ ظنونُه**»، «**فِراقُ ومن فارقتُ غيرُ مَذمَّ**» وقوله: «**كأنَّي عجيبٌ في عيونِ العجائبِ**»، وقوله: «**على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ**»، وقوله: «**مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ**»، وقوله: «**ولابدَّ دون الشهدِ من إبرِ النَّحلِ**»، وقوله: «**ولا يردُّ عليك الفائتُ الحزنُ**» إلى آخر ذلك السمو البياني والرقي اللفظي والجبروت العاطفي، فهذا الشاعر ليس خاملًا يبحث عن المعاني المبتذلة عند الحاكة والحلاقين والباعة، وليس باردًا يريد أن يقول كلامًا مقفّى وحديثًا موزونًا، ولكنه مبدع حر ليس عاديًا، عنده عاطفة فوَّارة، ونفس جياشة، وهمة مجنحة، وذاكرة خلاقة، مع

حياة مليئة بالعبر والتجارب؛ ولهذا كله صار أعجوبة في شعره، شاغل للمجالس؛ حاضر للنوادي، وإلا فما معنى أن نرى لعشرات الشعراء أسفارًا من الأشعار في مجلدات ضخمة، وإذا بها خامدة جامدة هامدة ميتة ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، ولم يصل لنا من شعر مئات الشعراء إلا عشرات القصائد الشاردة التي هي عيون في الأدب مثل:

(قفا نَبكِ، وهذا الذَّي تعرفُ البطحاءُ وطأته، وعيونُ المهَا، والسَّيفُ أصدق أنباءً، وأمنْ تذكر جيرانٍ بذي سلمٍ، وعلوٌّ في الحياةِ وفي الممات، ومجالسُ وحيٍّ مقفرُ العرصاتِ، ..) مع قليل من القصائد في قوتها ثم تندرس بقية قصائدهم، ولا يدري بها إلا باحث، ولا يعثر عليها إلا منقب متخصص، إلا هذا المتنبي الأعجوبة فمجمل شعره ينشد بين الناس، وحكمته تدور بين العلماء، وقوافيه تدور دوران عيون المحبين في مجالس الأنس كما قال هو: (إذا قلتَ شعراً أصبَح الدَّهرُ منشداً).

لقد أعفانا المتنبي من شعر الأعراب الذي ضيع أعمارنا في وصف ناقة عجفاء، وذكر منزل دارس مجدب، وتذكر فتاة في واد الغضا، ومدح شيخ قبيلة لا يحفظ الفاتحة، وسب قبيلة لأنها منعته من وجبة العشاء، فجاء المتنبي فحذف هذه الحواشي، ونسف هذه الحواجز الترابية ليرقى بمقاصد الشعر، مع ما عنده من غلو وإعجاب وتيه، وميزة المتنبي أنه كبير المعاني جليل الأغراض ضخم المقاصد؛ اسمع بعض ذلك:

يقول:

أحقُّهم بالسيفِ مَنْ ضرب الطُّلى وبالأمنِ من هَانَتْ عليه الشَّدَائِدُ

ويقول:

لا يَسلمُ الشَّرفُ الرَّفيعُ من الأذَى حتَّى يراقَ على جوانبِـه الـدَّمُ

ويقول:

من اقتضى بسوى الهِّنديِّ حاجتَهُ أجابَ كلَّ سـؤالٍ عـن هَلٍ بَلَمِ

ويقول:

لا يـدركُ المجـدَ إلا سـيدٌ فطـنُ لما يشـقُ علـى السَّادات فَعَّالُ

ويقول:

وإذا كانـتَ النُّفـوسُ كبـارًا تعبتْ فـي مـرادِهـا الأجسـامُ

ويقول:

ذَلَّ مـن يَغْبـطُ الذَّليـلَ بعيـشٍ ربَّ عيـشٍ ألـذُّ مِنـه الحِمَـامَ

ويقول:

يَـرى الجُبناءَ أن العجـزَ عقلٌ وتلكَ خديعـةُ الطَّـبعِ اللئيـمِ

ويقول:

جودُ الرجالِ من الأيدي وجودهـمُ من اللسـانِ فلا كانوا ولا الجـودُ

وله في هذا المذهب قطوف دانية من القول الثمين والمعنى الرصين.

لقد شبعت قصائد كثير من الشعراء موتًا قبل أن تولد، فها هي الدواوين في الأدراج جعلها الناس قراطيس يبدونها ويخفون كثيرًا منها، إذا قرأت أكثرها قلت:

أحسن عزاء من كتبها في مداده، وعوض الله من طبعها في ماله، حتى قال بعض الأدباء: طالعت ديوان فلان بن فلان ثم أخذته فأوقدت به نارًا، وصنعت عليها رغيفًا من البر، وها هي الصحف والمجلات والدوريّات تمطرنا بسيل جارف من القصائد لا تستحق دقيقة واحدة لمطالعتها، ولا تسمح لنا نفوسنا بقراءتها؛ لأنها جُمل متراكبة تراكب النمل، مزدحمة ازدحام شعر النيص، ثقيلة ثقل دم الضرس، لا تحرك في السامع شعرة، ولا تهز فيه ذرة، ومع ذلك يوصف هؤلاء الشعراء بالنجوم واللامعين وأساطين البيان، رحم الله امرءًا عرف قدر نفسه، وغفر الله لمن كان يستحي من الله ثم من خلقه؛ فنحن الآن وقعنا بين شعر يسمى عربيًا وهو أعجم من الأعجمي، حروفه عربية، ومعانيه سوقية، يذوب سخفًا، ويندى حقارة وخسة، وبين شعر عامي شعبي يصلح لأهل البادية الذين لم يشاهدوا سبورة ولا طبشورة؛ ولم يحملوا قلمًا ولا ورقة، ويظنون أن حدود العالم ما بين خيامهم ومرعى أغنامهم، لعل مقصودنا من دراسة المتنبي أن نقول لرواد الأدب، وشداة البيان، وحداة القافلة: حلقوا في سماء الإبداع واختاروا الأروع والأحسن، وارتقوا إلى مستوى فهم كتاب ربكم - جل في علاه - الكتاب الذي أعجز العرب العرباء، وأسكت الأدباء، وأفحم الشعراء ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾[البقرة: ٢]، ودعونا من هذا الهزال الأدبي، والكساح الخطابي، الذي ليس له عمر مديد، ولا مستقبل عامر؛ لأنه ميت منذ ولادته، محكوم عليه بالفناء من لحظة وجوده ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].